وظيفة الحذف النصية

إعداد/أ.د. محمد مليانى[1]
جامعة وهران

يعدّ الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية،[2]تميزت بها اللغة العربية؛ لأن خصائصها الأصيلة تميل إلى الإيجاز، وليس الغرض من الحذف تحقيق الإيجاز فحسب، بل هو وسيلة تعبيرية قصدية، يُعْدَل في تركيبها عن الأصل إلى بنية تركيبية أقل لفظا وأغزر معنى.

وإذا كان الحذف تقنية أسلوبية، وطريقة خاصة في الأداء يطلبها المقام، فإنّ الذكر يعتبر أصلا كذلك وبخاصة إذا كان الموضوع والمقام يطلبان الإسهاب والتفصيل والبسط، ومنه فإن النوعين (الذكر والحذف)ضروريان في عملية التواصل وتنويعها.

والحذف ظاهرة شائعة بين تحاليل مجموعة من أبواب النحاة، وغنية بالمعطيات، ويستعصي الإمساك بها لتعدد مواقعها، ينضاف إلى هذا أنه يتداخل فيها ما هو نحوي بما هو بلاغي، وما هو لغوي بما هو نظري، كما لفتت انتباه علماء النّص، باعتبارها إحدى الطاقات المحركة للأدبية، نظرا لما تحدثه من حيوية ونشاط داخل العمل الفني.

أ- مفهوم التماسك:

إن أول ما يصطدم به الباحث في مقاربته مفهوم التماسك، هو تعدد المصطلح وتداخل المفاهيم، ممّا يقتضي تقديم عرض موجز يتم فيه التفريق بين مصطلحين معتمدين كثيرا عند علماء النص، وهما: التناسق (cohesion) والانسجام (cohérence).

فيقصد مصطلح (cohésion) تلك العلاقات النحوية أو المعجمية بين العناصر المختلفـة في النص، وتكون هذه العلاقة بين جمل أو أجزاء

مختلفة، في حين يقصد بمصطلح (cohérence) العلاقات الدلالية،[3] ولتوضيح ذلك نستعين بالشكل الآتي:

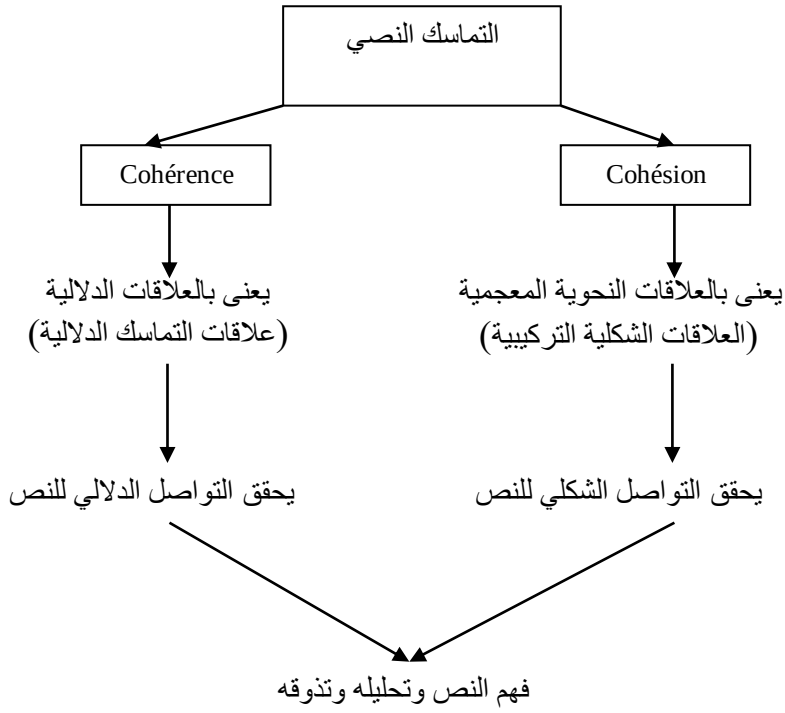

ويتبين مما سبق أن مصطلح التماسك يتجاذبه مفهومان، الأول يتأسس على الروابط الدّلالية، بينما يقوم المفهوم الثاني على العلاقات الشّكلية التّركيبية، والملاحظ أن المفهومين يتضافران معا لتحقيق التماسك بمفهومه الواسع لفهم النص وتحليله وبالتالي تذوقه.

وتفاديا لهذا الاختلاف في إطلاق المصطلح على مفهوم التماسك، وبما أنّ المصطلحين يتضايفان ويتضافران معا لتحقيق التماسك بطبيعتيه الشكلية والدلالية، أو بعبارة أخرى يربط بين المكونين الشّكلي والدّلالي،

حيث يتمثل الأول في الصورة المنطوقة للجملة، والثاني في صورتها العميقة، ارتأينا أن نوظف مصطلح **(Cohésion)** بمعنى التماسك في هذه المداخلة؛ لأنّ التماسك يؤدي معنى العلاقات والأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين أجزاء الجملة، وبين جمل النص و-أيضا- بين فقراته.

وفي ضوء هذا الفهم نخلص إلى أن النص وحدة كبرى شاملة، تتشكل من أجزاء مختلفة تتصل بمستويين: - الأول أفقي (نحوي) ويتشكل من وحدات صغرى تربط بينها علاقات التماسك النحوية.- والثاني عمودي (دلالي) ويتشكل من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية،[4]و"يصعب أن يعتمد في تحليل النص على نظرية بعينها، وإنما يمكن أن تتبنى نظرية كلية تتفرع إلى نظريات صغرى تحتية تستوعب كل المستويات".[5]ويمكن تمثل هذا الفهم في الشكل التالي:

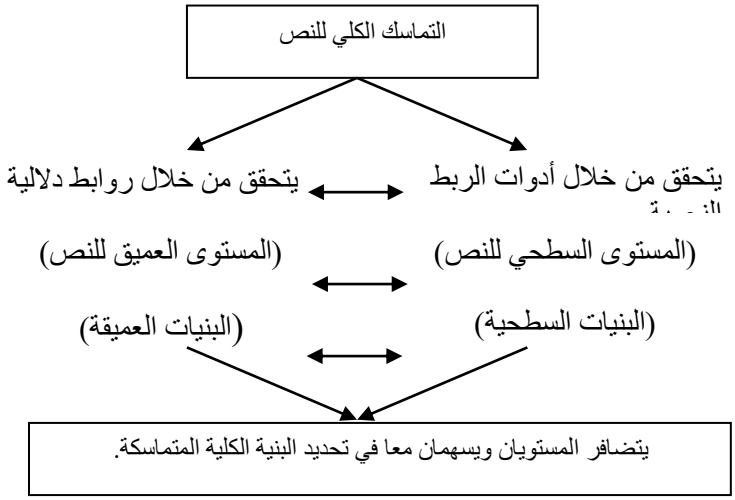

إذا كان علماء النص قد وجهوا اهتمامهم وعنايتهم إلى التماسك النصي بوصفه عنصرا هاما من عناصر التحليل الذي له حضور قوي في أي نص، فأين تكمن هذه الأهمية يا ترى؟

ب- أهمية التماسك:

أولى علماء النّص التماسكَ عناية كبيرة؛ لأنه يربط بين أجزاء الجملة، وأجزاء النص، وهذا الرابط شكلي دلالي- كما سبق ذكره- إلا أن التماسك لا يربط بين أجزاء الجملة باعتبارها بنية لسانية مستقلة، وإنما داخل البنية الكلية للنص؛ لأن عزلها يؤدي إلى تفسير جزئي لما تحمله من دلالات، قد تحقق امتدادا داخل الكل وفق دلالات الجمل السابقة واللاحقة. ويؤكد هذه الفكرة صلاح فضل بقوله:"علماء النص يولون التماسك عناية قصوى، ويذكرون أنه خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقاتها بما يفهم من الجمل الأخرى."[6]

وممّا تقدم نجمل أهمية التماسك في النقاط الآتية:[7]

- التركيز على كيفيات تركيب النص بوصفه صَرْحا دلاليا.
- والبحث عن أدوات التماسك في النص.
- والربط بين أجزاء الجمل والفقرات.

ولم يغب هذا الإدراك الواعي لمسألة التماسك عن ذهن المفسرين -أيضا- بحيث كان لهم حضور قوي تشهد له مؤلفاتهم، وهذا ليس أمرا غريبا؛ لأنهم فسروا كلام رب العالمين، فقد وقفوا على التماسك النصي في النص القرآني بين الحرف والحرف، والكلمة والكلمة، والكلمة والجملة، والكلمة والفقرة، والجملة والجملة، والسورة والسورة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر فخر الدين الرازي (ت606هـ) الذي أظهر براعة كبيرة في ربط الآيات السابقة بالآيات اللاحقة،[8] وأصفى ما نقدمه في المجال دليلا قوله:"... ثم إنه تعالى افتتح سورا أربعة بعد هذه السورة بقوله:﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾[8]، فأولها سورة الأنعام، وهو قوله:﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذّي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[10] واعلم أن المذكور هاهنا قسم من أقسام قوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾[11]في الفاتحة؛ لأن لفظ العلم يتناول كل ما سوى الله، والسموات والأرض والنور والظلمة قسم من أقسام ما سوى الله، فالمذكور في سورة الأنعام كأنّه قسم من أقسام ما هو مذكور في أول

سورة الفاتحة..."[12] وهذا تطبيق واع لما يصطلح عليه اليوم بالتماسك بيّن فيه الرازي التّماسك الدّلالي بين السورتين.

ولا تقل جهود البلاغيين شأنا في هذا المجال عن جهود سواهم، ويأتي في مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذّي رأى أن سر الإعجاز يكمن في الاتساق العجيب بين ألفاظ القرآن الكريم،[13]ويقول:"واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك... وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله."[14]

فنلفي عبد القاهر في هذا النص يومئ إلى التماسك الشّكلي والدّلالي معا من خلال حديثه عن التعليق والسّببية، ويشكل هذان الجانبان أدوات هامة يُعتمَدُ عليها في تحليل النص، ينضاف إليها أدوات أخرى، نحاول الوقوف عندها.

وفي رحاب هذا الفهم فإن فهم بنية النص، ينهض على تحليل العلاقات الداخلية التي أسهمت في نسجه، وهي التي يتم فيها اختراق أفقية المنطق الخطي نحو منطق عمودي نطلب من خلاله إدراك الدلالات المنطوية والمتوارية في ثنايا المكتوب، وهذا لخلق السياق العام الضروري لفهم النّص.[15]

*أدوات التماسك:

إنّ الحديث عن أدوات التماسك شائق وطويل، رغم التباينات الموجودة بين أقوال العلماء في حصرها وتحديدها في الغالب، إلاّ أن هذا التباين يبقى سطحيا، وتبقى الأدوات المشتركة بينهم تشكل جهازا نظريا موحدا أساسا، يؤطره هدف واحد مشترك يتمثل في تماسك وانسجام أجزاء النص.

صدر كتاب موسوم ب" التماسك في الإنجليزية " Cohesion in English" لهاليدي ورقية حسن، وقد تناول هذا المؤلف خمس أدوات وهي كالآتي:

1- المرجعية **(Référence)**.

2- العطف (Conjonction).[16]

3- التماسك المعجمي **(Cohésion Lexicale)**.

4- الحذف **(Ellipse)** .

5- الإبدال **(Substitution)** .

وتعد وسائل التماسك النصي أهم الركائز الرئيسة التي عول عليها علماء النص الغربيون في تحليل النص الفني، ولأهميتها نكاد نجدها شائعة في مؤلفاتهم، الأمر الذي جعل هاليداي ورقية حسن يخصصان لها مؤلفا خاصا -الذي سبق ذكره-، لكن في زخم هذه المفاهيم والأدوات الإجرائية المعتمدة في التماسك النصي، هل أدرك أسلافنا بوعي هذه المفاهيم؟، أو تنبهوا إليها وتناولوها بمسميات ومفاهيم أخرى تخضع لطبيعة اللّسان العربي؟، وبعبارة أخرى هل يوجد في التراث العربي المرتبط أساسا بالممارسة النصية إسهامات قابلة لأن تدرج في ما يطلق عليه اليوم "لسانيات النص" و"نحو النص"؟

نروم في فحص هذه القضية بيان أوجه الإجراء التي عمد إليها الدارسون العرب القدامى في تناولهم مسألة التماسك النّصي ووسائله، وتقتضي طبيعة المداخلة أن نقتصر في تسليط الأضواء على وسيلة واحدة تشترك فيها اللغات الإنسانية-كما سبق الذكر- ألا وهي ظاهرة الحذف بوصفها بؤرة إنتاج المعنى، أضف إلى ذلك أنها من العوامل الرئيسة التي تحقق التماسك النصي.

وجه العرب القدامى عنايتهم إلى قضية تماسك أجزاء النص من خلال تناولهم لظاهرة الحذف التي كانت مدار دراسة النحويين واللغويين

والبلاغيين والمفسرين، وإذا كان المقام لا يسمح لعرض جوانب عديدة مما قالوه في هذه المداخلة، فإننا سنبيّن منها في هذا الموضع ما يتلاءم والتماسك النّصي.

ونبدأ الحديث بالسيوطي (ت911هـ) الذّي تنبه إلى أن الحذف يحقق التماسك بين عناصر النص، فأطلق عليه "الاحتباك"، ويقول عنه: " ومأخذ هذه التسمية من الحبك، الذي معناه الشدّ والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب سدُّ ما بين خيوطه من الفُرَجِ، وشدُّه وإحكامه بحيث يمنع عنه الخَلَلَ مع الحسن والرونق. وبيان أخذه منه أن مواضع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط، فلما أدركها الناقد البصير بصوغه، الماهر في نظمه وحوْكه، فوضع المحذوف مواضعه كان حائكا له مانعا من خَلَلٍ يطرقه؛ فسدّ بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق"[17]

ويقول في موضع آخر:" أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت في الأول"[18]، ونلاحظ أن السيوطي قد أدرك أن الحذف يحقق التماسك بين أجزاء النص.

كما وقف الزركشي (ت794هـ) على ما يحقق التماسك النصي، وأطلق عليه "الحذف التقابلي"، ويعرفه بقوله:" أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه".[19]

ولتوضيح ما سبق نورد نظرة علماء القرنين الرابع والخامس الهجريين لمفهوم ظاهرة الحذف، ونستهل الحديث بأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت384هـ) الذّي عدّ الحذف أحد وجهي الإيجاز؛ لأنّه " إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"،[20]وأكد هذا الفهم القاضي عبد الجبار في كون الحذف" يحسن في اللغة إذا كان الثابت من الكلام يدلّ على المحذوف"[21]، ويتبيّن لنا أن نظرة هؤلاء العلماء لم تخرج عن تلك الضوابط العقلية التي تحكم الحذف.

ويبدو أنّ قول الرماني أكثر إيضاحا؛ لأنه أرجع الدلالة إلى بعدين هامين، يتمثل الأول في "الحالية" والثاني في ما يتضمنه "فحوى الكلام"، وبذلك يكشف الرماني عن دلالات لا تتصل بمفردات تتراص تراصاً آلياً عن كيفيات الكلام، لأن هذه "الحالية " التي توحي بالدلالة ليست متصلة بمجرد آلية التراص قدر ما يبعثه السياق من إيحاء دلالي، ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن قوله " فحوى الكلام" فهي الأخرى تعود إلى المعنى نفسه.

وإذا كان للحذف طريقتان، إحداهما تهتم بالحذف النحوي، والثانية تقرنه بالوظيفة الجمالية، فإن له أهمية بالغة عند علماء النص في استكمال تشكيل النص بوصفه وسيلة هامة من وسائل تماسكه، بفضل متلق متطور قادر على الفهم، ومعرفة خصائصه ومن بينها ألوان الحذوف التي تَعتَورُ النّص كله.

ونخلص في ضوء ما سبق إلى أن الحذف لا يمكن أن يؤدي دوره في الدّلالة، والتأثير إن لم يدل عليه الدّليل الذّي أشار إليه ابن جني والرماني والقاضي عبد الجبار، والحذف بوصفه بؤرة إنتاج المعنى يفسح المجال رحبا للمتلقي لاستكمال تشكيل النّص، عبر التأويل وتخيل صور واحتمال دلالات عديدة، على غرار ذكر المحذوف الذّي يُثَبِّتُ الدّلالة، ويحدد أبعادها ويحصر غناها وثراءها.

وبناء على ما سلف تكون الدّراسات الحديثة قد أثبتت أنّ أسلافنا العرب قد امتلكوا قامات عالية في دراساتهم النحوية والبلاغية لأساليب العربية، ولا يقل عنهم شأنا علماء التفسير؛ ولهذا كان علينا أن نستلهم، هذا التراث بحمولته الثقافية والمعرفية، ونحاول تفسيره في ضوء انشغالات تفكيرنا الراهن مع استثمار المفاهيم والأدوات المعرفية في الفكر الغربي استثمارا قائما على التفاعل الإيجابي، وذلك لإضاءة جوانب كثيرة في الدّراسات اللّسانية الحديثة.

إذا كان علم لغة النّص (Linguistique du texte) فرعا من فروع علم اللّغة، فإن نحو النص قد تفرع من علم اللغة النصي الذي يهتم بدراسة النص بوصفه أفعال اللّسان، وذلك لدراسة زوايا متعددة فيه، ولعل من أهمها التماسك النّصي ووسائله والمرجعية (الإحالة) (Référence) والسياق ودور المتلقي.

وتعد ظاهرة الحذف في منظور هذا الاتجاه الجديد وسيلة هامة من وسائل التماسك بشقيه: الشكلي والدّلالي، وهذا ما نرغب فحصه وتتبعه فيما تبقى من هذه المداخلة.

وقد دفعنا هذه الرؤية إلى ضرورة توضيح مفهوم الإحالة وأهميتها في تماسك النص وعلاقتها بالحذف؛ وذلك لأنه وسيلة أساسية في تناسق أجزاء النص، التّي تعتبر في نظر هاليداي ورقية حسن متتالية من الجمل تربطها علاقات، أو تربط بعض عناصر هذه الجمل، أي هذه العلاقة تكون بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو أخرى لاحقة، أو بين عنصر وبين متتالية بكاملها سابقة أو لاحقة، فإذا تعلق عنصر بما سبقه فهي علاقة قبلية، أما إذا تعلق بعنصر يلحقه فهي بعدية،[22]ويمكن توضيح ذلك من قوله تعالى:﴿وَقِيلَ لِلذِّينَ اِتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾[23] والتقدير:أنزل خيرا، فحذف الفعل مع فاعله في جواب الاستفهام، ويمكن تمثل الآية كما يأتي:

﴿ وَقِيلَ لِلذِّينَ اِتَّقَوْا مَاذَا **أَنْزَلَ** رَبُّكُمْ قَالُوا(.....) خَيْراً ﴾

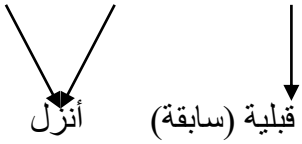

الملاحظ أن المحذوف مفعول واقع في جواب الاستفهام (ماذا) بدليل كلام مذكور سابقا، إذن هنا المرجعية قبلية دلّ عليها سياق الكلام،

والمحذوف في الآية الكريمة يدل على التماسك الداخلي بين جملتي الاستفهام وجوابها، ومنه -أيضا- قول الشاعر[24]

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

والتقدير: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض، ويمكن تمثله بهذا الشكل:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا(.....) = نحن (مبتدأ)+بما(جار ومجرور)+(الخبر المحذوف)

وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ = أنت(مبتدأ)+ بما(جار ومجرور)+راض(الخبر المذكور)

وكما هو واضح في الشاهد فإنّ التماسك قد تحقق بين الشطرين، وذلك لدلالة المذكور اللاّحق على السابق المحذوف، أومن " الإبدال من الصفر"[25]حسب مفهوم هاليداي ورقية حسن، ومن خلالها نفهم ما أراد الشاعر رسمه للمتلقي؛ لأن البنية الكلية للبيت الشعري هي متتالية جملية وليست شيئا معطى، وإنما يحتاج إلى وسيلة ملموسة توضحه وتجليه حسب رأي فان دايك.[26]

أما المرجعية البعدية ففي قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَه يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِئ﴾[27]، والتقدير: إن الله يصلي في قراءة من رفع "ملائكته"، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وليس عطفا عليه[28]، ويمكن تمثل الآية كما يأتي:

﴿إِنَّ اللَّهَ(.....)وَمَلاَئِكَتَه **يُصَلُّونَ** عَلَى النَّبِئ﴾

يصلي مرجعية بعدية (لاحقة)

وفي سبيل امتلاك بعض التوضيح للمرجعية القبلية و البعدية، نستعين بالرسم الآتي:

أ ⟵ ب = تمثل مرجعية قبلية (إحالة مقالية قبلية)

ب ⟵ أ = تمثل مرجعية بعدية (إحالة مقالية بعدية)

ويوضح هذا الرسم مرجعية الحذف الذي يعتور البنى اللسانية سواء أكانت سابقة أم لاحقة، أي إذا اشتملت متتالية جملية على حذف، فلابد من مرجعية توجّه المتلقي إلى موضعه، ومن ثم فهمه اعتمادا على السياق.

ونجد بعض الآيات القرآنية الكريمة تتوافر فيها مرجعيتان قبلية وبعدية، ومنها قوله تعالى:﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾،[29]والتقدير: ويعلم جهركم، فحذف الفعل والفاعل لدلالة السابق واللاحق عليه، فالمرجعية هنا مشتركة بين القبلية والبعدية، ونتمثلها كالآتي:

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ/وَ(.....) جَهْرَكُمْ / وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

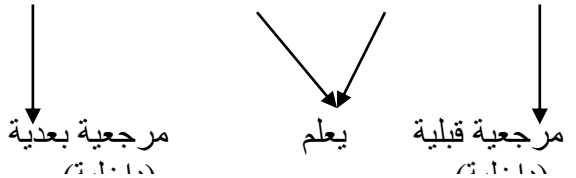

ونلاحظ في هذه الآية حذف الفعل مع فاعله، والدليل مقالي من لفظ المحذوف، وقد تنوعت المرجعية وذلك لتقوية الربط بين السابق واللاّحق وبين ما لم يذكر (الفعل وفاعله) الواقع بينهما، ومن ثم توجه المتلقي إلى فهم النص القرآني فهما صحيحا، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا توصل إلى تقدير الكلام المحذوف (المغيب) من خلال الكلام المظهر، باعتبار هذا الأخير مرشدا وموجها.

وإذا كان الحذف يحقق التماسك بين عناصر الآية الواحدة، أو بين عناصر أكثر من آية، اعتمادا على المرجعية الداخلية، فإنّه يحقق التماسك بين أكثر من سورة اعتمادا على المرجعية الخارجية، مثل قوله تعالى:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَّأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾،[30]والتقدير: (يَأْتِي أمر رَبُّكَ)، بدليل قوله تعالى في سورة أخرى:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَّأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبُّكَ﴾[31]فدلّ على المحذوف سياق الآية، وأكدته آية من سورة النحل.[32]

وبالإضافة إلى مساهمة هذا الحذف في تناسق النص وتماسكه اعتمادا على المرجعية الخارجية اللاّحقة،[33]فإنه أدّى وظيفة أخرى، إذ أفاد حقيقة وهي أن الانتقال والإتيان من مكان إلى آخر صفة من صفات الأجسام التي تشغل حيزا، وأنّ الله عزّ وجل خالق الأماكن والأزمنة، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة والتمكن والسكون والانفصال والاتصال والممارسة والمحاذاة[34]، فلا يجوز لله سبحانه وتعالى الإتيان كما بينه الجرجاني في أسراره، وكذلك أمره لا يمكنه المجيء إلا على وجه مجازي؛ لأن الأمر يصدر ويُنَفَّد ويطبَّق ولا يأتي.

لقد تركت العناصر المحذوفة من الآية السابقة فجوة، ممّا يثير المتلقي (متلق خبير)[35]ويدفعه إلى التّمعن والتدبر بغية سد الفجوة وملئها، وتحديد العناصر غير المحددة، وهذا العمل هو الذّي قام به المفسرون، فتوصلوا إلى أن سر الحذف -فضلا على التماسك- يكمن في التأكيد على صدور الأمر، كونه قدرا مقضيا، أما الإتيان فأفاد حتمية وقوعه وتجسيد نفاده فورا حتى شخّص وكأنه آتٍ.

ومنه قوله تعالى:﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ﴾،[36]أي:كعرض؛ بدليل التصريح به في قوله تعالى:﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾،[37]إنّ العلاقة بين الحذف والمرجعية واضحة، الأمر الذي يؤكد أهمية الحذف في تحقيق التناسق النّصي، أضف إلى ذلك أن" تفسير القرآن بالقرآن يعد من أصول التفسير، بل يعد

أول هذه الأصول"[38]والحذف عند هاليداي ورقية حسن يرتبط بمرجعية داخلية أو خارجية، سابقة أو لاحقة توضحه في قولهما: " إن الحذف بطبيعته علاقة مرجعية لما سبق (Anaphorique)... وأحيانا يكون الحذف مرجعيته خارجية (Exophorique) والأخيرة تعتمد على سياق الحال الذي يمدنا بالمعلومات التي تسهم في تفسير المثال. لكن الحذف المرجعي للخارج-خارج النص- ليس له مكان في التماسك"[39]، ويمكن توضيح فحوى هذا الكلام بالرسم التالي:

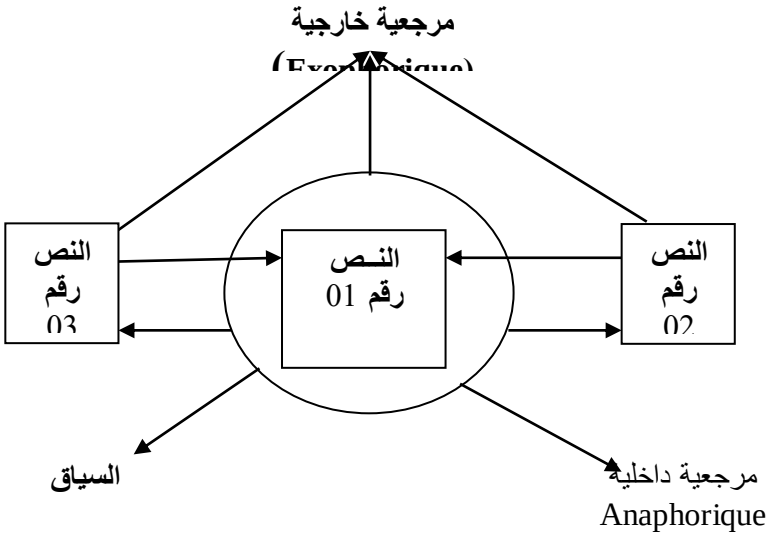

وينهض تماسك النّص على عناصر هامة في نظر الباحثيْن، وتتمثل حسب الرسم المبين في المرجعية الداخلية، وتكون إما سابقة أو لاحقة، والمرجعية الخارجية، وينضاف إليهما السياق.

*** وظيفة الحذف النّصية:**

يأتي القرآن الكريم في الذروة من البيان العربي، فهو كتاب العربية الأكبر، الذّي يشكل بآياته وسوره بنية نصية كلية، وأصفى قول نستشهد به في هذا المقام للإمام علي كرم الله وجهه:" **كتابُ الله تُبْصِرُون به، وتَنْطِقُون به، وتَسْمَعُون به، وَيَنْطِقُ بَعضُه ببَعضٍ، ويَشهدُ بَعضُه على بَعضٍ، لا يختلفُ في الله، ولا يُخَالِفُ بصاحبه عن الله** "[40]

وقد كان إعجازه البياني موردا متأصلا من موارد إعجازه الكلّي، فلا غرابة أن يكون القرآن الكريم مصدرا لكل ما توصل إليه علماء لغة النص، أو كما يطيب للبعض أن يطلق عليه نحو النص، وأصلا لتفجير طاقات كثيرة من هذا العلم، المنعوت بالمنعطف الجديد، حتى يفيد هاليداي وحسن منه، ويغيرا ما أقرّاه بخصوص عدم تحقيق التماسك بالحذف والمرجعية الخارجة(Exophoric)[41]؛ لأنّ ما أوردناه من آيات قرآنية قد أثبت عكس ذلك تماما، وحقق الحذف التماسك والاتساق بين أكثر من سورة، ويحضرنا في هذا الشأن قول الإمام علي–كرم الله وجهه-: "إنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه"[42]، والحقيقة إن الحديث عن القرآن ذو شجون وفنون،لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، ولا تبلغ مراميه.

وفي ضوء هذا الطرح أين نضع قول هاليداي ورقية حسن:" لكن الحذف المرجعي للخارج-خارج النص- ليس له مكان في التماسك"؟[43] وتقتضي الإجابة عن هذا السؤال من أبناء اللغة العربية الرجوع إلى الإسهامات النصية العربية، وإعادة قراءتها للإفادة منها؛ لأن ما خلفه المفسرون من أعمال في دراسة وتفسير آي القرآن الكريم، تكشف عن وجود مثل هذه المفاهيم في أذهانهم وهم يمارسون تلقي آي القرآن الكريم

وما توصلوا إليه من نتائج، يشكل اليوم مرتكزا معرفيا هاما يعول عليه في دفع عجلة بحوث لسانيات النص، وكذا تطوير النظريات اللغوية المعاصرة وبخاصة تلك التي تقوم على التّحليل النّصي.

ومن المسلمات إذن القول إن النص القرآني متماسك، وينبغي ذلك؛ لأنه كلام الله الذّي يأتي في ذروة البيان، الأمر الذّي جعل"السيوطي يبرهن برهنة دقيقة على مقولة مشهورة لدى العلماء المسلمين وهي أن القرآن الكريم كالكلمة الواحدة يفسر بعضه بعضا"[44] لكن كنا نروم في تتبع أي القرآن الكريم توضيح كيف يساهم الحذف في تحقيق التناسق، وكشف الأساس النظري الذي ينهض عليه في هذا المجال.

هوامش الدراسة:

1 - أستاذ بكلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران -الجزائر-

2- ينظر ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : طاهر سليمان حمودة، ص04.

3- ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د. صبحي إبراهيم الفقى، ج95/1.

4- ينظر علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات: أ.د. سعيد حسن بحيرى، ط.1، سنة 1424ه/2004م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة- ص110.

5- المرجع نفسه، ص 108.

6- بلاغة الخطاب وعلم النص : د.صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس 1992م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص263.

7-ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : د. صبحي إبراهيم الفقى،100/1

8- ينظر الترجمة للإمام الرازي في مقدمة التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، ط.1، سنة1412هـ/1991م، دار الغد العربي-القاهرة- 18/1.

9 - سورة الفاتحة/02.

10- سورة الأنعام/1.

11- سورة الفاتحة/2.

12- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ط.3، د.ت، دار إحياء التراث العربي-بيروت- 180/1.

13- ينظر دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 37.

14- المصدر نفسه، ص 44.

15- ينظر من النص إلى التأويل: محمد ديوان، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 60-61، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس 1989م.
16- تؤدي أدوات العطف وظيفة التماسك النصي- يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في" بناء الجملة العربية: محمد حماسة عبد اللطيف، ط.1، سنة1416ه/1996م، دار الشروق-مصر- ص 158 وما بعدها.
17- الإتقان: السيوطي، ج183/3.
18- المصدر نفسه، 182/3-183.
19- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج129/3.
20- النكت في إعجاز القرآن : الرماني، ص70.
21- تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضي عبد الجبار، ص 164.
22- ينظر لسانيات النص -مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص13.
23- سورة النحل/30.
24- قيس بن الخطيم (ت 2ق.هـ/620م) بن عدّي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس وأحد رجالها الصناديد في الجاهلية.
25- ينظر لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص21.
26- ينظر النص والسياق-استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي :فان دايك، ترجمة،عبد القادر قنيني، د.ط،سنة2000م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب- ص 143 .
27- سورة الأحزاب/56.
28- ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج133/3.
29- سورة الأنعام/3.
30- سورة الأنعام/158.
31- سورة النحل/33.
32 ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج114/3.
33- تكون المرجعية الخارجية لاحقة أو سابقة في آي القرآن الكريم وفق ترتيبه المصحفي.
34- ينظر أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص339-340.
35- المقصود بالمتلقي الخبير المفسر الفاهم والعارف الذي تتوافر فيه شروط المفسر.

36- سورة آل عمران/133.
37- سورة الحديد/21.
38- علم اللغة النصي- دراسة تطبيقية على السور المكية-: د. صبحى إبراهيم الفقى، ج179/2.
39- المرجع نفسه 201/2، و .Cohesion in English,halliday and hassan,p144
40- نهج البلاغة-من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، شرح الشيخ محمد عبده، د.ط، سنة 1961م، دار أسامة، بيروت-لبنان-ج17/2.
41- أي أن الحذف في نظر هاليداي ورقية حسن لا يحقق التماسك النصي اعتمادا على المرجعية الخارجية والسياق.
42 - نهج البلاغة -من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، ج55/1.
43- علم اللغة النصي - دراسة تطبيقية على السور المكية- : د. صبحى إبراهيم الفقى، ج179/2.
44- لسانيات النص- مدخل إلى انسجام النص-محمد خطابي، ص388.